

## كتاب آداب العزلة

حجة الأسلام أبو حامد محمد الغزالي

المتوفي في بلدة طوس من أعمال خراسان سنة 1111 م

## كتاب آداب العزلة

### الفهرست:

- في نقل المذاهب والأقاويل

- في فوائد العزلة وغوائلها

### بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله الذي أعظم النعمة على خيرة خلقه وصفوته بأن صرف همهم إلى مؤانسته، وأجزل حظهم من التلذذ بمشاهدة آلائه وعظمتهم، وروح أسرارهم بمناجاته وملاطفته، وحقر في قلوبهم النظر إلى متاع الدنيا وزهرتها حتى اغتبط بعزلته كل من طويت الحجب عن مجاري فكرته فاستأنس بمطالعة سبحات وجهه تعالى في خلوته، واستوحش بذلك عن الأُنس بالأنس وإن كان من أخص خاصته والصلاة على سيدنا محمد سيد أنبيائه وخيرته وعلى آله وصحابه سادة الحق وأئمة .

أما بعد: فإن للناس اختلافاً كثيراً في العزلة والمخالطة وتفضيل إحداهما على الأخرى، ومع أن كل واحدة منهما لا تنفك عن غوائل تنفر عنها وفوائد تدعو إلى إليها، وميل أكثر العباد والزهاد إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة وما ذكرناه في كتاب الصحبة من فضيلة المخالطة والمواخاة والمؤالفة يكاد يناقض ما مال إليه الأكثرون من اختيار الإستيحاش والخلوة، فكشف الغطاء عن الحق في ذلك مهم. ويحصل ذلك برسم بابين "الباب الأول" في نقل المذاهب والحجج فيها "الباب الثاني" في كشف الغطاء عن الحق بحصر الفوائد والغوائل .

### الباب الأول

#### في نقل المذاهب والأقاويل

#### وذكر حجج الفريقين في ذلك

أما المذاهب فقد اختلف فيها وظهر هذا الاختلاف بين التابعين. فذهب إلى اختيار العزلة وتفضيلها على المخالطة: سفيان الثوري، وإبراهيم بن أدهم، وداود الطائي، وفضيل بن عياض، وسليمان الخواص، ويوسف بن أسباط وحذيفة المرعشي، وبشر الحافي .

وقال أكثر التابعين باستحباب المخالطة واستكثار المعارف والإخوان والتألف والتحبب إلى المؤمنين والإستعانة بهم في الدين تعاوناً على البر والتقوى ومال إلى هذا: سعيد بن المسيب، والشعبي، وابن أبي ليلى، وهشام بن عروة، وابن شبرمة، وشريح، وشريك بن عبد الله، وابن عيينة، وابن المبارك، والشافعي، وأحمد بن حنبل، وجماعة. والمأثور عن العلماء من الكلمات ينقسم إلى كلمات مطلقة تدل إلى أحد الرأيين، وإلى كلمات مقرونة بما يشير إلى علة الميل. فلنقل الآن مطلقات تلك الكلمات لنبيين المذاهب فيها، وما هو مقرون بذكر العلة نوره عند التعرض للغوائل والفوائد، فنقول؛ قد روي عن عمر رضي الله عنه أنه قال: خذو بحظكم من العزلة. وقال ابن سيرين: العزلة عبادة. وقال الفضيل: كفى بالله محباً وبالقرآن مؤنساً وبالموت واعظاً. وقيل: اتخذ الله صاحباً ودع الناس جانباً. وقال أبو ربيع الزاهد لداود الطائي: عطني؛ قال: صم عن الدنيا واجعل فطرك الآخرة وفر من الناس فرارك من الأسد. وقال الحسن رحمه الله:

كلمات أحفظهن من التوراة؛ قنع ابن آدم فاستغنى، اعتزل الناس فسلم، ترك الشهوات فصار حراً، وترك الحسد فظهرت مروءته، صبر قليلاً فتمتع طويلاً. وقال وهيب ابن الورد. بلغنا أن الحكمة عشرة أجزاء، تسعة منها في الصمت والعاشر في عزلة الناس. وقال يوسف بن مسلم لعلي بن بكار: ما أصبرك على الوحدة؟ - وقد كان لزم البيت - فقال: كنت وأنا شاب أصبر على أكثر من هذا؛ كنت أجالس الناس ولا أكلمهم. وقال سفيان الثوري: هذا وقت السكوت وملازمة البيوت. وقال بعضهم: كنت في سفينة ومعنا شاب من العلوية فمكث معنا سبعا لا نسمع له كلاماً؛ فقلنا له: يا هذا قد جمعنا الله وإياك منذ سبع ولا نراك تخالطنا ولا تكلمنا، فأنشأ يقول:

قليل الهم لا ولد يموت                      ولا أمر يحاذره يفوت  
قضى وطر الصبا وأفاد علماً                  فغايته التفرّد والسكوت

وقال إبراهيم النخعي لرجل تفقه ثم اعتزل، وكذا قال الربيع بن خثيم. وقيل كان مالك بن أنس يشهد الجنائز ويعود المرضى ويعطي الإخوان حقوقهم فترك ذلك واحداً واحداً حتى تركها كلها، وكان يقول: لا يتهياً للمرء أن يخبر كل عذر له. وقيل لعمر بن عبد العزيز: لو تفرغت لنا؟ فقال: ذهب الفراغ فلا فراغ إلا عند الله تعالى وقال الفضيل: إني لأجد للرجل عندي يداً: إذا لقيني أن لا يسلم علي، وإذا مرضت أن لا يعودني. وقال أبو سليمان الداراني، بينما الربيع ابن خثيم جالس على باب داره إذ جاءه حجر فصك جهته فشجه، فجعل يمسخ الدم ويقول: لقد وعظت يا ربيع، فقام ودخل داره فما جلس بعد ذلك على باب داره حتى أخرجت جنازته. وكان سعد بن أبي وقاص وسعيد بن زيد لهما بيوتهما بالعقيق فلم يكونا يأتيان المدينة لجمعة ولا لغيرها حتى ماتا بالعقيق. وقال يوسف بن إسباط: سمعت سفيان الثوري يقول، والله الذي لا إله إلا هو لقد حلت العزلة وقال بشر بن عبد الله: أقل من معرفة الناس فإنك لا تدري ما يكون يوم القيامة، فإن تكن فضيحة كان من يعرفك قليلاً. ودخل بعض الأمراء على حاتم الأصم فقال له: ألك حاجة؟ قال نعم، قال: وما هي؟ قال أن لا تراني ولا أراك ولا تعرفني. وقال رجل لسهل: أريد أن اصحبك، فقال: إذا مات أحدنا فمن يصحب الآخر؟ قال: الله قال: فليصحبه الآن. وقيل للفضيل: إن علياً ابنك يقول لوددت أنني في مكان أرى الناس ولا يرونني؛ فبكى الفضيل وقال: يا ويح على أفلا أتمها فقال لا أراهم ولا يرونني؟ وقال الفضيل أيضاً: من سخافة عقل الرجل كثرة معارفه. وقال ابن عباس رضي الله عنهما: أفضل المجالس مجلس في قعر بيتك لا ترى ولا ترى. فهذه أقاويل المائلين إلى العزلة.

### ذكر حجج المائلين إلى المخالطة ووجه ضعفها

احتج هؤلاء بقوله تعالى "ولا تكونوا كالذين تفرقوا واختلفوا" الآية وبقوله تعالى "فألف بين قلوبكم" أمتن على الناس بالسبب المؤلف وهذا ضعيف؛ لأن المراد به تفرق الآراء واختلاف المذاهب في معاني كتاب الله وأصول الشريعة. والمراد بالألفة نزع الغوائل من الصدور وهي الأسباب المثيرة للفتن المحركة للخصومات، والعزلة لا تنافي ذلك. واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم "المؤمن ألف مألوف ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف" وهذا ضعيف لأنه إشارة إلى مذمة سوء الخلق تمتنع بسببه المؤلف، ولا يدخل تحته الحسن الخلق الذي إن خالط ألف وألف ولكنه ترك المخالطة اشتغالا بنفسه وطلباً للسلامة من غيره.

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وسلم "من فارق الجماعة شبرا خلع ربة الإسلام من عنقه" وقال "من فارق الجماعة فمات فميتته جاهلية" وبقوله صلى الله عليه وسلم "من شق عصا المسلمين والمسلمون في إسلام دامج فقد خلع ربة الإسلام من عنقه" وهذا ضعيف لأن المراد به الجماعة التي اتفقت آرائهم على إمام يعقد البيعة بالخروج عليهم بغي، وذلك مخالفة بالرأي وخروج عليهم وذلك محذور لاضطرار الخلق إلى إمام مطاع يجمع رأيهم ولا يكون ذلك إلا بالبيعة من الأكثر، فالمخالفة تشويش مثير للفتنة فليس في هذا تعرض للعزلة.

واحتجوا بنهيه صلى الله عليه وسلم عن الهجر فوق ثلاث إذ قال "من هجر أخاه فوق ثلاث فمات دخل النار" وقال عليه السلام "لا يحل لامرئ مسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاث والسابق بالصلح يدخل الجنة" وقال "من هجر أخاه سنة فهو كسافك دمه" قالوا والعزلة هجره بالكلية. وهذا ضعيف لأن المراد به الغضب على الناس واللجاج فيه بقطع الكلام والسلام والمخالطة المعتادة، فلا يدخل فيه ترك المخالطة أصلاً من غير غضب. مع أن الهجر فوق ثلاث جائز في موضعين؛ أحدهما: أن يرى فيه إصلاحاً للهجر في الزيادة. الثاني أن يرى لنفسه سلامة فيه. والنهي وإن كان عاماً فهو محمول على ما وراء الموضعين المخصوصين بدليل ما روى عن عائشة رضي الله عنها. أن النبي صلى الله عليه وسلم هجرها ذا الحجة والمحرم وبعض صفر. وروى عن عمر: أنه صلى الله عليه وسلم اعتزل نساءه وآلى

منهن شهرا وصعد إلى غرفة له وهي خزانته فلبث تسعا وعشرين يوما؛ فلما نزل قيل له: إنك كنت فيها تسعا وعشرين، فقال "الشهر قد يكون تسعا وعشرين" وروت عائشة رضی الله عنها: أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "لا يحل لمسلم أن يهجر أخاه فوق ثلاثة أيام إلا أن يكون ممن لا تؤمن بوائقه" فهذا صريح في التخصيص وعلى هذا ينزل قول الحسن رحمه الله حيث قال: هجران الأحمق قرابة إلى الله فإن ذلك يدوم إلى الموت إذ الحماسة لا ينتظر علاجها. وذكر عند محمد بن عمر الواقدي رجل هجر رجلا حتى مات؛ فقال: هذا شيء قدم تقدم فيه قوم؛ سعد بن أبي وقاص كان مهاجرا لعمار بن ياسر حتى مات، وعثمان بن عفان كان مهاجرا لعبد الرحمن بن عوف وعائشة كانت مهاجرة لحفصة. وكان طاوس مهاجرا لوهب بن منبه حتى ماتا. وكل ذلك يحمل على رؤيتهم سلامتهم في المهاجرة واحتجوا بما روى: أن رجلا أتى الجبل ليتعبد فيه فجئى به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال "لا تفعل أنت ولا أحد منكم لصبر أحدكم في بعض موطن الإسلام خير له من عبادة أحدكم وحده أربعين عاما" والظاهر أن هذا إنما كان لما فيه من ترك الجهاد مع شدة وجوبه في ابتداء الإسلام بدليل ما روى عن أبي هريرة رضی الله عنه أنه قال: غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فمررنا بشعب فيه عيينة طيبة الماء؛ فقال واحد من القوم: لو اعتزلت الناس في هذا الشعب ولن أفعل ذلك حتى أذكره لرسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه وسلم "لا تفعل فإن مقام أحدكم في سبيل الله خير من صلواته في أهله ستين عاما ألا تحبون أن يغفر الله لكم وتدخلون الجنة اغزوا في سبيل الله فإنه من قاتل في سبيل الله فواق ناقة أدخله الله الجنة. واحتجوا بما روى معاذ بن جبل أنه صلى الله عليه وسلم قال "إن الشيطان ذنب الإنسان كذئب الغنم يأخذ القاصية والناحية والشاردة وإياكم والشعاب وعليكم بالعمامة والجماعة والمساجد" وهذا إنما أراد به من اعتزل قبل تمام العلم، وسيأتي بيان ذلك وأن ذلك ينهى عنه إلا لضرورة.

#### ذكر حجج المائلين إلى تفضيل العزلة

احتجوا بقوله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام "وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي" الآية ثم قال تعالى "فلما اعتزلهم وما يعبدون من دون الله وهبنا له إسحق ويعقوب وكلاً جعلنا نبياً" إشارة إلى أن ذلك ببركة العزلة. وهذا ضعيف لأن مخالطة الكفار لا فائدة فيها إلا دعوتهم إلى الدين. وعند اليأس من إجاباتهم فلا وجه إلا هجرهم وإنما الكلام في مخالطة المسلمين وما فيها من بركة لما روي أنه قيل: يا رسول الله الوضوء من جر مخمن أحب إليك أو من هذه المطاهر التي يتطهر منها الناس؟ فقال: "بل هذه المطاهر التماساً لبركة أيدي المسلمين" وروي أنه صلى الله عليه وسلم لما طاف بالبيت عدل إلى زمزم ليشرب منها؛ فإذا التمر المنقع في حياض الأدمة قد مغته الناس بأيديهم وهم يتناولون منه ويشربون، فاستسقى منه وقال: "أسقوني" فقال العباس: "إن هذا النبيذ شراب قد مغث وخيض بالأيدي أفلا أتيتك بشراب أنظف من هذا من جر مخمر في البيت؟" فقال: "أسقوني من هذا الذي يشرب منه الناس ألتمس بركة أيدي المسلمين" فشرب منه فإذن كيف يستدل باعتزال الكفار والأصنام على اعتزال المسلمين مع كثرة البركة فيهم؟ واحتجوا أيضاً بقول موسى عليه السلام: "وإن لم تؤمنوا لي فاعتزلون" وأنه فرغ إلى العزلة عند اليأس منهم وقال تعالى في أصحاب الكهف "وإذا اعتزلتموهم وما يعبدون إلا الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته" أمرهم بالعزلة. وقد اعتزل بينا صلى الله عليه وسلم قريشاً لما آذوه وجفوه ودخل الشعب وأمر أصحابه باعتزالهم والهجرة إلى أرض الحبشة، ثم تلاحقوا به إلى المدينة بعد أن أعلى الله كلمته. وهذا أيضاً اعتزال عن الكفار. وأهل الكهف لم يعتزل بعضهم بعضاً وهم مؤمنون وإنما اعتزلوا الكفار، وإنما النظر في العزلة من المسلمين.

واحتجوا بقوله صلى الله عليه وآله عليه وآله وسلم لعبد الله بن عامر الجهني لما قال: يا رسول الله ما المناجاة؟ قال "ليسعك بيتك وأمسك عليك لسانك وأبك على خطيئتك" وروي أنه قيل له صلى الله عليه وسلم: أي الناس أفضل؟ قال "مؤمن مجاهد بنفسه وماله في سبيل الله تعالى" قيل: ثم من؟ قال "رجل معتزل في شعب من شعاب يعبد ربه ويدع الناس من شره" وقال صلى الله عليه وسلم "إن الله يحب العبد التقي النقي الخفي".

وفي الإحتجاج بهذه الأحاديث نظر، فأما قوله لعبد الله بن عامر فلا يمكن تنزيله إلا على ما عرفه صلى الله عليه وآله وسلم بنور النبوة من حاله، وإن لزوم البيت كان أليق به وأسلم له من المخالطة، فإنه لم يأمر جميع الصحابة بذلك، ورب شخص تكون سلامته في العزلة لا في المخالطة كما قد تكون سلامته في القعود في البيت وأن لا يخرج إلى الجهاد، وذلك لا يدل على أن ترك الجهاد أفضل. وفي مخالطة الماس مجاهدة ومقاساة ولذلك قال صلى الله عليه وآله وسلم "الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من الذي لا يخالط الناس ولا يصبر على أذاهم" وعلى هذا ينزل قوله عليه السلام "رجل معتزل يعبد ربه ويدع الناس من شره" فهذا إشارة إلى شريير بطبعه تتأذى الناس بمخالطته.

وقوله "إن الله يحب التقي الخفي" إشارة الى إثارة الخمول وتوقي الشهرة. وذلك لا يتعلق بالعزلة فكم من راهب معتزل تعرفه كافة الناس؟ وكم من مخالطة خامل لا ذكر له ولا شهرة؟ فهذا تعرض لأمر لا يتعلق بالعزلة. واحتجوا بما روي أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه "ألا أنبئكم بخير الناس" قالوا: بلا يا رسول الله، فأشار بيده نحو المغرب وقال "رجل أخذ بعنان فرسه في سبيل الله ينتظر أن يغير أو يغار عليه ألا أنبئكم بخير الناس بعده؟" وأشار بيده نحو الحجاز وقال "رجل في غنمه يقيم الصلاة ويؤتي الزكاة ويعلم حق الله في ماله اعتزل شرور الناس" فإذا ظهر أن هذه الأدلة لا شفاء فيها من الجانبين فلا بد من كشف الغطاء بالتصريح بفوائد العزلة وغوائلها ومقايضة بعضها ببعض ليتبين الحق فيها .

## الباب الثاني

### في فوائد العزلة وغوائلها وكشف الحق في فضلها

اعلم أن اختلاف الناس في هذا يضاهاى اختلافهم في فضيلة النكاح والعزوبة. وقد ذكرنا أن ذلك يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص بحسب ما فصلناه من آفات النكاح وفوائده، فكذلك القول فيما نحن فيه. فلنذكر أولاً فوائد العزلة وهي تنقسم الى فوائد دينية ودنيوية. والدينية تنقسم إلى ما يمكن من تحصيل الطاعات في الخلوة والمواظبة على العبادة والفكر وتربية العلم، وإلى تخلص من إرتكاب المنهي عن المنكر ومسارقة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة من جلساء السوء. وأما الدنيوية فتتقسم إلى ما يمكن من التحصيل بالخلوة؛ كتمكن المحترف في خلوته إلى ما يخلص من محذورات يتعرض لها بالمخالطة، كالنظر إلى زهرة الدنيا وإقبال الخلق عليها وطعمه في الناس وطعم الناس فيه وانكشاف ستر مروءته بالمخالطة والتأذي بسوء خلق الجليس في مرأته أو سوء ظنه أو نميمته أو محاسدته أو التأذي بثقله وتشويه خلقته. وإلى هذا ترجع مجامع فوائد العزلة فالنحصرها في ست فوائد.

### الفائدة الأولى

#### التفرغ للعبادة والفكر والإستئناس بمناجاة الله

تعالى عن مناجاة الخلق، والإشتغال باستكشاف أسرار الله تعالى في أمر الدنيا والآخرة وملكوت السموات والأرض

فإن ذلك يستدعي فراغاً ولا فراغ مع المخالطة، فالعزلة وسيلة إليه. ولهذا قال بعض الحكماء: لا يتمكن أحد من الخلوة إلا بالتمسك بكتاب الله تعالى. والتمسكون بكتاب الله تعالى هم الذين استراحوا من الدنيا بذكر الله الذاكرون الله بالله عاشوا بذكر الله وماتوا بذكر الله ولقوا الله بذكر الله. ولا شك في أن هؤلاء تمنعهم المخالطة عن الذكر والفكر فالعزلة أولى بهم. ولذلك كان صلى الله عليه وسلم في ابتداء أمره يتبتل في جبل حراء وينعزل إليه حتى قوي فيه نور النبوة فكان الخلق لا يحجبونه عن الله فكان يبذنه مع الخلق وبقلبه مقبلاً على الله تعالى حتى كان الناس يظنون أن أبا بكر خليله. فأخبر النبي صلى الله عليه وسلم عن استغراق همه بالله فقال "لو كنت متخذاً خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله" ولن يسع الجمع بين مخالطة الناس ظاهراً والإقبال على الله سرّاً إلا قوة النبوة فلا ينبغي أن يغتر كل ضعيف بنفسه فيطمع في ذلك، ولا يبعد أن تنتهي درجة بعض الأولياء إليه. فقد نقل عن الجنيد أنه قال: أنا أكلم الله منذ ثلاثين سنة والناس يظنون أنني أكلهم. وهذا إنما يتيسر للمستغرق بحب الله استغراقاً لا يبقي لغيره فيه متسع وذلك غير منكر، ففي المشتهرين بحب الخلق من يخالط الناس ببذنه وهو لا يدري ما يقول ولا ما يقال له لفرط عشقه لمحبيبته. بل الذي دهاه ملم يشوش عليه أمراً من أمور دنياه فقد يستغرقه الهم بحيث يخالط الناس ولا يحس بهم ولا يسمع أصواتهم لشدة استغراقه. وأمر الآخرة أعظم عند العقلاء فلا تستحيل ذلك فيه ولكن الأولى بالأكثرين الإستعانة بالعزلة. ولذلك قيل لبعض الحكماء؟ ما الذي أرادوا بالخلوة واختيار العزلة؟ فقال: يستدعون بذلك دوام الفكرة وتثبيت العلوم في قلوبهم ليحيوا حثاة طيبة ويزوقوا حلاوة المعرفة. وقيل لبعض الرهبان: ما أصبرك على الوحدة! فقال: ما أنا وحدي أنا جليس الله تعالى إذا شئت أن يناجيني قرأت كتابه وإذا شئت أن أتأجبه صليت. وقيل لبعض الحكماء: إلى أي شئ أفضى بكم الزهد والخلوة؟ فقال: إلى الأُنس بالله. وقال سفيان بن عيينة: لقيت ابراهيم بن أدهم رحمه الله في بلاد الشام فقلت له: يا ابراهيم تركت خراسان؟ فقال: ما تهنأت بالعيش إلا

ههنا أفرّ بديني من شاهق الى شاهق، فمن يراني يقول موسوساً وحمالاً أو ملاح. وقيل لغزوان الرقاشي: هيك لا تضحك فما يمنعك من مجالسة إخوانك؟ قال: إني أصيب راحة قلبي في مجالسة من عنده حاجتي. وقيل للحسن يا أبا سعيد: ههنا رجل لم تره قط جالساً إلا وحده خلف سارية. فقال الحسن: إذا رأيتموه فأخبروني به؛ فظنوا إليه ذات يوم فقالوا للحسن: هذا الرجل الذي أخبرناك به؟ وأشاروا إليه؛ فمضى إليه الحسن وقال له: يا عبد الله أراك قد حبيت إليك العزلة فما يمنعك من مجالسة الناس؟ فقال: فما يمنعك أن تأتي هذا الرجل الذي يقال له الحسن فتجلس إليه؟ فقال أمر شغلني عن الناس. وعن الحسن: فقال له الحسنوما ذلك الشغل يرحمك الله؟ فقال: إني أصبح وأمسي بين نعمة وذنوب فرأيت أن أشغل نفسي بشكر الله تعالى على النعمة والإستغفار من الذنب فقال له الحسن: أنت يا عبد الله أفقه عندي من الحسن فالزم ما أنت عليه. وقيل: بينما أوبس القرني جالس إذ أتاه هرم بن حيان فقال له أوبس: ما جاء بك؟ قال: جئت لأنس بك، فقال أوبس: ما كنت أرى أن أحداً يعرف ربه فيأنس بغيره؛ وقال الفضيل: إذا رأيت الليل مقبلاً فرحت به وقلت أخلو بربي، وإذا رأيت الصبح أدركني استرجعت كراهية لقاء الناس وأن يجيئني من يشغلني عن ربي. وقال عبد الله بن زيد: طوبى لمن عاش في الدنيا وعاش في الآخرة، قيل له: وكيف ذلك؟ قال: يناجي الله في الدنيا ويجاوره في الآخرة. وقال ذو النون المصري: سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمنجاة ربه. وقال مالك بن دينار: من لم يأنس بمحادثة المخلوقين فقد قل علمه وعمي قلبه وضيع عمره. وقال ابن مبارك: ما أحب حال من انقطع الى الله تعالى ويروى عن بعض الصالحين أنه قال: بينما أنا أسير في بعض بلاد الشام إذا أنا بعابد خارج من بعض تلك الجبال فلما نظر إلي تنحى الى أصل شجرة وتستر بها فقلت: سبحان الله تبخل علي بالنظر إليك؟ فقال: هذا إني أقمت في هذا الجبل دهرًا طزيبلاً أعالج قلبي في الصبر عن الدنيا وأهلها فطال في ذلك تعبي وفني فيه عمري فسألت الله تعالى أن لا يجعل من أيامي في مجاهدة قلبي، فسكنه الله الإضطراب وألفه الوحدة والإنفراد، فلما نظرت إليك خفت أن أقع في الأمر الأول لإغليك عني فأني أعوذ من شرك برب العارفين وحبيب الفاننتين، ثم صاح: واغماء من طول المكث في الدنيا، ثم حول وجهه عني، ثم نفص بيديه وقال: إليك عني يا دنيا لغيري فتزيني وأهلك فغري، ثم قال: سبحان من أذاق قلوب العارفين من لذة الخدمة وحرارة الإنقطاع إليه ما ألهى قلوبهم عن ذكر الجنان وعن الحور الحسان، وجمع همهم في ذكره فلا شئ ألدعدهم من مناجاته. ثم مضى وهو يقول: قدوس قدوس. فإذا في الخلوة أنس بذكر الله واستكثار من معرفة الله وفي مثل ذلك قيل :

لعل خيالاً منك يلقي خيالها  
أحدث عنك النفس بالسر خالها

وإني لأستغشى وما بي غشوة  
وأخرج من بين الجلوس لعنني

ولذلك قال بعض الحكماء: إنما يستوحش الإنسان من نفسه لخلق ذاته عن الفضيلة فيكثر حينئذ ملافة الناس ويتردد الوحشة عن نفسه بالكون معهم، فإذا كانت ذاته فاضلة طلب الواحدة ليستعين بها على الفكرة ويستخرج العلم والحكمة. وقد قيل الإستئناس من علامات الإفلاس فإذا هذه فائدة جزيلة ولكن في حق بعض الخواص ومن يتيسر له بدوام الذكر الأنس بالله أو بدوام الفكر التحقق في معرفة الله فالتجرد له أفضل من كل ما يتعلق بالمخالطة. فإن غاية العبادات وثمرتها المعاملات أن يموت الإنسان محباً لله عارفاً بالله ولا محبة إلا بالأنس الحاصل بدوام الذكر ولا معرفة إلا بدوام الفكر. وفراغ القلب شرط في كل واحد منهما ولا فراغ مع المخالطة.

### الفائدة الثانية

**التخلص بالعزلة عن المعاصي التي يتعرض الإنسان لها غالباً بالمخالطة ويسلم منها في الخلوة**

وهي أربعة: الغيبة والنميمة، والرياء والسكوت عن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ومشاركة الطبع من الأخلاق الرديئة والأعمال الخبيثة التي يوجبها الحرص على الدنيا.

أما الغيبة فإذا عرفت من كتاب آفات اللسان من ربع المهلكات وجوهها عرفت أن التحرز عنها مع المخالطة عظيم لا ينجو منها إلا الصديقون. فإن عادة الناس كافة التمضمض بأعراض الناس والتفكه بها والتنفل بحلاوتها وهي طعمتهم ولذتهم وإليها يستروحون من وحشتهم في الخلوة. فإن خالطهم ووافقهم أثمت وتعرضت لسخط الله تعالى، وإن سكت كنت شريكاً، والمستمع أحد المغتابين، وإن أنكرت أبغضوك وتركوا ذلك المغتاب واغتابوك فازدادوا غيبة إلى غيبة، وربما زادوا على الغيبة وانتهوا إلى الإستخفاف والشتم.

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فهو من أصول الدين وهو واجب - كما سيأتي بيانه في آخر هذا الربع - ومن خالط الناس فلا يخلو عن مشاهدة المنكرات فإن سكت عصى الله به. وإن أنكرت تعرض لأنواع من الضرر إذ ربما يجره طلب الخلاص عنها إلى معاص أكبر مما نهى عنه ابتداء. وفي العزلة خلاص من هذا فإن الأمر في إهماله شديد والقيام به شاق. وقد قام أبو بكر رضي الله عنه عند خطيبا وقال "أيها الناس إنكم تفرعون هذه الآية" أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم" وإنكم تضعونها في غير موضعها وإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول "إذا رأى الناس المنكر فلم يغيروه أو شك أن يعمهم الله بعقاب" وقد قال صلى الله عليه وسلم "إن الله ليسأل العبد حتى يقول له ما منعك إذا رأيت المنكر أن تنكره فإذا لقن الله لعبد حجته قال يا رب رجوتك وخفت الناس" وهذا إذا خاف من ضرب أو أمر لا يطاق. ومعرفة حدود ذلك مشكلة وفيه خطر. وفي العزلة خلاص وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إثارة للخصومات وتحريك لغوائل الصدور كما قيل:

وكم سقت في أثاركم من نصيحة      وقد يستفيد البغضة المتصح

ومن جرب الأمر بالمعروف ندم عليه غالباً فإنه كجدار مائل يريد الإنسان أن يقيمه فيوشك أن يسقط عليه؛ فإذا سقط عليه يقول ياليتني تركته مائلاً نعم لو وجد أعواناً أمسكوا الحائط حتى يحكمه بدعامة لاستقام وأنت اليوم لا تجد الأعوان فدعهم وانج بنفسك. وأما الرياء فهو الداء العضال الذي يعسر على الأبدال والأوتاد والإحترار عنه. وكل من خالط الناس داراهم، ومن داراهم راءاهم ومن راءاهم موقع فيما وقعوا فيه وهلك كما هلكوا. وأقل ما يلزم فيه النفاق فإنك إن خالطت متعادين ولم تلق كل واحد منهما بوجه يوافق صرت بغيضاً إليهما جميعاً، وإن جاملتها كنت من شرار الناس. وقال صلى الله عليه وسلم "تجدون من شرار الناس ذا الوجهين يأتي هؤلاء بوجه" وأقل ما يجب في مخالطة الناس إظهار الشوق والمبالغة فيه ولا يخلوا ذلك عن كذب إما في الأصل وإما في الزيادة، وإظهار الشفقة بالسؤال عن الأحوا بقولك: كيف أنت؟ وكيف أهلك؟ وأنت في الباطن فارغ القلب من همومه" وهذا نفاق محض. قال سري: لو دخل أخ لي فسويت لحيتي بيدي لدخوله لخشيت أن أكتب في جريدة المنافقين. وكان الفضيل جالساً لوحده في المسجد الحرام فجاء إليه أخ له فقال له: ما جاء بك؟ قال: المؤانسة يا أب علي فقال: هي والله بالمواحسة أشبه هل تريد إلا أن تتزين لي وأتزين لك وتكذب لي وأكذب لك؟ إما أن تقوم عني أو أقوم عنك. وقال بعض العلماء: ما أحب الله عبداً إلا أحب أن لا يشعر به. ودخل طاوس على الخليفة هشام فقال: كيف أنت يا هشام؟ فغضب عليه وقال: لم تخاطبني بأمر المؤمنين؟ فقال: لأن جميع المسلمين ما اتفقوا على خلافتك فخشيت أن أكون كاذباً. فمن أمكنه أن يحترز هذا الإحترار فليخالط الناس وإلا فليرضى بإثبات اسمه في جريدة المنافقين. فقد كان السلف يتلاقون ويحترزون في قولهم كيف أصبحت وكيف أمسيت؟ وكيف أنت؟ وكيف حالك؟ وفي الجواب عنه. فكان سؤالهم عن أحوال الدين لا عن أحوال الدنيا. قال حاتم الأصم لحامد اللفاف: كيف أنت في نفسك؟ قال: سالم معافى. فكره حاتم جوابه وقال: يا حامد السلامة من وراء الصراط والعافية في الجنة. وكان إذا قيل لعيسى صلى الله عليه وسلم كيف أصبحت؟ قال أصبحت لا أملك تقديم ما أرجو ولا أستطيع دفع ما أحاذر وأصبحت مرتهاً بعملتي والخير كله في يد غيري ولا فقير أفقر مني وكان الربيع بن خثيم إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت من ضعفاء مذنبين نستوفي أرزاقنا وننتظر آجالنا. وكان أبا الدرداء إذا قيل له: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت بخير إن نجوت من النار. وكان سفيان الثوري إذا قيل له: كيف أصبحت؟ يقول: أصبحت أشكر ذا الذي وأذم ذا الذي وأفر من ذا الذي ذاء، وقيل لأويس القرني: كيف أصبحت؟ قال: كيف يصبح رجل إذا أمسى لا يدري أنه يصبح وإذا أصبح لا يدري أنه يمسي؟ وقيل لمالك بن دينار كيف أصبحت؟ قال: أصبحت في عمر ينقص وذنوب تزيد. وقيل لبعض الحكماء: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت لا أرضى حياتي لمماتي ولا نفسي لربي. وقيل لحكيم: كيف أصبحت؟ قال: أصبحت أكل رزق ربي وأطبع عدوه إبليس. وقيل لمحمد بن واسع: كيف أصبحت؟ قال: ما ظنك برجل يرتحل كل يوم إلى الآخرة مرحلة. وقيل لحامد اللفاف: كيف أصبحت؟ قال: قال أصبحت أشتي عافية يوم إلى الليل، فقيل له: ألسنت في عافية في كل الأيام؟ فقال: العافية يوم لا أعصى الله تعالى فيه. وقيل لرجل وهو يجود بنفسه: ما حالك؟ فقال: وما حال من يريد سفراً بعيداً بلا زاد ويدخل قبراً موحشاً بلا مؤنس وينطلق إلى ملك عدل بلا حجة. وقيل لحسان ابن أبي سنان: ما حالك؟ قال: ما حال من يومت ثم بيعت ثم يحاسب. وقال ابن سيرين لرجل: كيف حالك؟ فقال: وما حال من عليه خمسمائة درهم ديناً وهو معيل؟ فدخل ابن سيرين منزله فأخرج له ألف درهم فدفعها إليه وقال: خمسمائة اقض بها دينك وخمسمائة عد بها على نفسك وعيالك ولم يكن عنده غيرها - ثم قال: والله لا أسأل أحداً عن حاله أبداً. وإنما فعل ذلك لأنه خشي أن يكون سؤاله من غير اهتمام بأمره فيكون بذلك مرانياً منافقاً. فقد كان سؤالهم عن أمور الدين. أحوال القلب في معاملة الله وإن سألوا عن أمور الدنيا فعن اهتمام وعزم على القيام بما يظهر لهم من الحاجة.

وقال بعضهم: إني لأعرف أقواماً كانوا لا يتلاقون ولو حكم أحهم على صاحبه بجميع ما يملكه لم يمنعه، وأرى الآن أقواماً يتلاقون ويتسائلون حتى عن الدجاجة في البيت. ولو انبسط أهدم لحبة من مال صاحبه لمنعه فهل هذا إلا مجرد الرياء والنفاق؟ وآية ذلك أنك ترى هذا يقول كيف أنت؟ ويقول الآخر كيف أنت؟ فالسائل لا ينتظر الجواب والمسؤول يشتغل بالسؤال ولا يجيب، وذلك لمعرفة كيف أنت عن رياء وتكلف. ولعل القلوب لا تخلو عن ضغائن وأحقاد والألسنة تنطق بالسؤال. قال الحسن: إنما كانوا يقولون السلام عليكم، إذا سلمت والله القلوب، وأما الآن: كيف أصبحت عافاك الله؟ كيف أنت أصلحك الله؟ فإن أخذنا بقولهم كانت بدعة لا كرامة فإن شاؤوا غضبوا علينا، وإن شاؤوا لا. وإنما قال ذلك لأن البداية بقولك: كيف أصبحت بدعة. وقال رجل لأبي بكر عياش: كيف أصبحت؟ فما أجابه. وقال دعونا من هذه البدعة. وقال: إنما حدث هذا في زمان الطاعون الذي كان يعى طاعون عمواس بالشام من الموت الذريع، كان الرجل يلقاه أخوه غدوة فيقول كيف أصبحت من الطاعون؟ ويلقاه عشية فيقول: كيف أمسيت؟ والمقصود أن الإلقاء في غالب العادات ليس يخلو عن أنواع التصنع والرياء والنفاق، وكل ذلك مذموم، بعضه محذور وبعضه مكروه. وفي العزلة الخلاص من ذلك، فإن من لقي الخلق ولم يخالفهم بأخلاقهم مقتوه واستنقلوه واغتابوه وتشمروا لإيذائه فيذهب دينهم فيه ويذهب دينه ودينه في الإنتقام منهم. وأما مسارقة الطبع مما يشاهده من أخلاق الناس وأعمالهم فهو داء دفين قلما ينتبه له العقلاء فضلاً عن الغافلين، فلا يجالس الإنسان فاسقا مدة مع كونه منكراً عليه في باطنه إلا ولو قاس نفسه إلى ما قبل مجالسته لأدرك بينهما تفرقة في النفرة عن الفساد واستنقاله إذ يصير للفساد بكثرة المشاهدة هينا على الطبع فيسقط وقعه واستعظامه له، وإنما الوازع عنه شدة وقعه في القلب فإذا صار مستصغراً بطول المشاهدة أو شك أن نحل القوة الوازعة ويذعن الطبع للميل إليه أو لما دونه. ومهما طالت مشاهدته للكبائر من غيره استحققر الصغائر من نفسه: ولذلك يزدري الناظر إلى الأغنياء نعمة الله عليه فتؤثر مجالستهم في أن يستصغر ما عنده وتؤثر مجالسة الفقراء في استعظام ما أتيج له من النعم. وكذلك النظر إلى المطيعين والعصاة هذا تأثيره في الطبع من يقصر نظره على ملاحظة أحوال الصحابة والتابعين في العبادة والتنزه عن الدنيا فلا يزال ينظر إلى نفسه بعين الإستصغار وإلى عبادته بعين الإستحقار: وما دام يرى نفسه مقصراً فلا يخلو عن داعية الاجتهاد رغبة في الاستكمال واستتماماً للاقتداء. ومن نظر إلى الأحوال الغالبة على أهل الزمان وإعراضهم عن الله وإقبالهم على الدنيا واعتيادهم المعاصي استعظم أمر نفسه بأدنى رغبة في الخير يصادفها في قلبه وذلك هو الهلاك. ويكفي في تغيير الطبع مجرد سماع الخير والشر فضلاً عن مشاهدته. وبهذه الدقيقة يعرف سر قوله صلى الله عليه وسلم "عند ذكر الصالحين تنزل الرحمة دخول الجنة ولقاء الله وليس ينزل عند الذكر عين ذلك ولكن سببه وهو انبعاث الرغبة من القلب وحركة الحرص على الاقتداء بهم والاستتكاف عما هو ملابس له من القصور والتقصير. ومبدأ الرحمة فعل الخير الرغبة ومبدأ الرغبة ذكر أحوال الصالحين، فهذا معنى نزول الرحمة. والمفهوم من فحوى هذا الكلام عند الفطن كامفهوم من عكسه وهو أن عند ذكر الفاسقين تنزل اللعنة لأن كثرة ذكرهم تهون على الطبع أمر المعاصي، واللعنة هي البعد. ومبدأ البعد من الله هو المعاصي، والإعراض عن الله بالإقبال على الحظوظ العاجلة والشهوات الحاضرة لا على الوجه المشروع. ومبدأ المعاصي سقوط ثقلها وتفاحشها عن القلب. ومبدأ سقوط الثقل وقوع الأوس بها بكثرة السماع. إذا كان حال ذكر الصالحين والفاسقين فما ظنك بمشاهدتهم؟ بل قد صرح بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال "مثل جليس السوء كمثل الكير إن لم يحرقك بشره علق بك من ريحه" فكما أن الريح يعلق بالثوب ولا يشعر به فكذلك يسهل الفساد على القلب وهو لا يشعر به. وقال "مثل الجليس الصالح مثل صاحب المسك إن لم يهب لك تجد ريحه" ولهذا أقول من عرف من عالم زلة حرم عليه حكايتها لعلتين، إحداهما: أنها غيبة، والثانية وهي أعظمها. أن حكايتها تهون على المستمعين أمر تلك الزلة، ويسقط من قلوبهم استعظامهم الإقدام عليها فيكون ذلك سبباً لتهوين تلك المعصية فإنه مهما وقع فيها فاستنكر ذلك دفع الاستنكار وقال كيف يستبعد هذا منا وكلنا مضطرون إلى مثله حتى العلماء والعباد؟ ولو اعتقد أن مثل ذلك لا يقدم عليه عالم ولا يتعاطاه موفق معتبر لشق عليه الإقدام، فكم من شخص يتكالب على الدنيا ويحرص على جمعها ويتهالك على حب الرياسة وتزيينها ويهون على نفسه قبحها ويزعم أن الصحابة رضي الله عنهم لم ينزهوا أنفسهم عن حب الرياسة؟ وربما يستشهد عليه بقتال علي ومعاوية ويخمن في نفسه أن ذلك لم يكن لطلب الحق بل لطلب الرياسة، فهذا الاعتقاد خطأ يهون عليه أمر الرياسة ولوآزمها من المعاصي. والطبع اللئيم يميل إلى ابتاع الهفوات والإعراض عن الحسنات بل إلى تقدير الهفوة فيما لا هفوة فيه بالتنزيل على مقتضى الشهوة ليتعلل به وهو من دقائق مكايد الشيطان، ولذلك وصف الله المرغمين للشيطان فيها بقوله "الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه" وضرب صلى الله عليه وسلم لذلك مثلاً وقال مثل الذي يجلس يستمع الحكمة ثم لا يعمل إلا بشر ما يستمع كمثل رجل أتى راعياً فقال له يا راعي اجر لي شاة من غنمك فقال اذهب فخذ خير شاة فيها فذهب فأخذ بأذن كلب الغنم" وكل من ينقل هفوات الأئمة فهذا مثاله أيضاً. ومما يدل على سقوط وقع الشئ عن القلب بسبب تكرره ومشاهدته أن أكثر الناس إذا رأوا مسلماً أظفر في نهار رمضان استبعدوا ذلك منه استبعاداً يكاد يفضي إلى اعتقادهم



كفره، وقد يشاهدون من يخرج الصلوات عن أوقاتها ولا تنفر عن طباعهم كنفرتهم عن تأخير الصوم، مع أن صلاة واحدة يقتضى تركها الكفر عند قوم وحز الرقبة عند قوم، وترك صوم رمضان كله لا يقتضيه ولا سبب له إلا أن الصلاة تتكرر والتساهل فيها مما يكثر فيسقط وقعها بالمشاهدة عن القلب. ولذلك لو لبس الفقيه ثوباً من حرير أو خاتماً من ذهب أو شرب من إنباء فضة استبعدته النفوس واشتد إنكارها، وقد يشاهد في مجلس طويل لا يتكلم إلا بما هو اغتياب للناس ولا يستبعد منه ذلك. والغيبة أشد من الزنا فكيف لا تكون أشد من لبس الحرير؟ ولكن كثرة سماع الغيبة ومشاهدة المغتابين أسقط وقعها عن القلوب وهون على النفس أمرها، فتفطن لهذه الدقائق وفرّ من الناس فرارك من الأسد لأنك لا تشاهد منهم إلا ما يزيد في حرصك على الدنيا وغفلتك عن الآخرة ويهون عليك المعصية ويضعف رغبتك في الطاعة. فإن وجدت جليساً يذكرك الله رؤيته وسيرته فالزمه ولا تفارقه واغتنمه ولا تستحقره فإنها غنيمة العاقل وضالة المؤمن. وتحقق أن الجليس الصالح خير من الوحدة وأن الوحدة خير من الجليس السوء. ومهما فهمت هذه المعاني ولا حظت طبعك والتفت إلى حال من أردت مخالطته لم يخف عليك أن الأولى التبعاد بالعزلة أو التقرب إليه بالخلطة. وإياك أن تحكم مطلقاً على العزلة أو الخلطة بأن إحداهما أولى إذ كل مفصل بإطلاق القول فيه بلا أو نعم خلف من القول محض ولا حق في المفصل إلا الفصيل .

### الفائدة الثالثة

#### الخلاص من الفتن والخصومات وصيانة الدين والنفس عن الخوض فيها والتعرض لأخطارها وقلما تخلو البلاد عن تعصبات وفتن وخصومات

فالمعتزل عنهم في سلامة منها. قال عبد الله بن عمرو بن العاص: لما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الفتن ووصفها وقال "إذا رأيت الناس مرجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا - وشبك بين أصابعه - قلت: فما تأمرني؟ فقال "الزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر الخاصة ودع عنك أمر العامة" وروى أبو سعيد الخدري أنه صلى الله عليه وسلم قال "يوشك أن يكون خير مال المسلم غنماً يتبع بها شعف الجبال ومواقع القطر يفر بدينه من الفتن من شأق الى شأق" وروى عبد الله بن مسعود أنه صلى الله عليه وسلم قال: "سيأتي على الناس زمان لا يسلم لذي دين دينه إلا من فرّ بدينه من قرية الى قرية ومن شأق الى شأق ومن جحر الى جحر كالتعلب الذي يروغ" قيل له: ومتى ذلك يا رسول الله؟ قال "إذا لم تنل المعيشة إلا بمعاصي الله تعالى فإذا كان ذلك الزمان حلت العزوبة" قالوا: وكيف يا رسول الله وقد أمرتنا بالتزويج؟ قال "إذا كان ذلك الزمان كان هلاك الرجل على يد أبويه فإن لم يكن له أبوان فعلى يدي زوجته وولده فإن لم يكن فعلى يدي قرابته" قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال "يعيرونه بضيق اليد فيتكلف نالاً يطبق حتى يورده ذلك موارد الهلكة" وهذا الحديث وإن كان في العزوبة فالعزلة مفهومة منه إذ لا يستغني المتأهل عن المعيشة والمخالطة ثم لا ينال المعيشة إلا بمعصية الله تعالى، ولست أقول: هذا أوان ذلك الزمان فلقد كان هذا بإعصار قبل هذا العصر، ولأجله قال سفيان: والله لقد حلت العزلة. وقال ابن مسعود رضي الله عنه: ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أيام الفتنة وأيام الهرج قلت: وما الهرج؟ قال "حين لا يأمن الرجل جليسه" قلت: فيم تأمرني إن أدركت ذلك الزمان؟ قال "كف نفسك ويدك وادخل دارك" قال: قلت يا رسول الله أرأيت إن دخل على داري؟ قال "فادخل بيتك" قلت فإن دخل على بيتي؟ قال "فادخل مسجدك واصنع هكذا" وقبض على الكوع "وقل ربي الله حتى تموت" وقال سعد - لما دعي الى الخروج أيام معاوية - لا ... إلا أن تعطوني سيفاً له عيان بصيرتان ولسان ينطق بالكافر فأقتله وبالمؤمن فأكف عنه، وقال: مثلنا ومثلكم كمثّل قوم كانوا على محجة بيضاء فبينما هم كذلك يسرون إذ هاجت ريح عجاجة فضلوا الطريق فالتبس عليهم؛ فقال بعضهم الطريق ذات اليمين فأخذوا فيها فتأهوا وضلوا، وقال بعضهم ذات الشمال فأخذوا فيها فتأهوا وضلوا، وأناخ آخرون وتوقفوا حتى ذهب الريح وتبينت الطريق فسافروا. فاعتزل سعد وجماعة معه فارقوا الفتن ولم يخالطوا إلا بعد زوال الفتن. وعن ابن عمر رضي الله عنهما: أنه لما بلغه أن الحسين رضي الله عنه توجه الى العراق تبعه فلحقه على مسيرة ثلاثة أيام فقال له: أين تريد؟ فقال: العراق. فإذا معه طوامير وكتب؛ فقال: هذه كتبهم وبيعنتهم فقال: لا تنتظر الى كتبهم ولا تأتهم؛ فأبى، فقال: إني أحدثك حديثاً؛ جبريل أتى النبي صلى الله عليه وسلم فخيره بين الدنيا والآخرة فاختار الآخرة على الدنيا وإنك بضعة من رسول الله صلى الله عليه وسلم والله لا يليها أحد منكم أبداً وما صرفها عنكم إلا للذي هو خي لكم، فأبى أن يرجع، فاعتنقه ابن عمر وبكى وقال: استودعك الله من قتيل أو أسير. وكان في الصحابة عشرة آلاف فما خف أيام الفتنة أكثر من أربعين رجلاً. وجلس طاوس في بيته فقيل له في ذلك فقال: فساد الزمان وجيف الأئمة. ولما بنى عروة قصره بالعقيق ولزمه قيل له: لزم القصر وتركت مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ فقال: رأيت مساجدكم لا هية وأسواقكم لا غية والفاحشة في فجاجكم عالية وفيما هناك عما أنتم فيه عافية. فإن الحذر من الخصومات، ومثارات الفتن إحدى فوائد العزلة .

## الفائدة الرابعة

### الخلاص من شر الناس

فإنهم يؤذونك مرة بالغبية ومرة بسوء الظن والتهمة بالاقتراحات والأطماع الكاذبة التي يعسر الوفاء بها، وتارة بالنميمة أو الكذب فربما يرون منك من الأعمال أو الأقوال ما لا تبلغ عقولهم كنهه فينخدون ذلك ذخيرة عندهم يدخرونها لوقت تظهر فرصة للشر، فإذا اعتزلتهم استغثت من التحفظ عن جميع ذلك. ولذلك قال بعض الحكماء لغيره: أعلمك بيتين خير من عشرة آلاف درهم؟ ماهما؟ قال:

اخفض الصوت إن نطقت بليل  
ليس للقول رجعة حين يبدو  
والتفت بالنهار قبل المقال  
بقبيح يكون أو بجمال

ولاشك أن من اختلط بالناس وشاركهم في أعمالهم لا ينفك من حاسد وعدو يسيئ الظن به ويتوهم أنه يستعد لمعاداته ونصب المكيدة عليه وتدسيس غائلة وراءه فالناس مهما اشتد حرصهم على أمر "يحسيون كل صيحة عليهم هم العدو فاحذرهم" وقد اشتد حرصهم على الدنيا فلا يظنون بغيرهم إلا الحرص عليها. قال المتنبي:

إذا ساء فعل المرء ساءت ظنونه  
وعادى محبيه بقول عاداته  
وصدق ما يعتاده من توهم  
فأصبح في ليل من الشك مظلم

وقد قيل: معايشرة الأشرار تورث سوء الظن بالأبرار. وأنواع الشر الذي يلقاه الإنسان من معارفه وممن يختلط به كثيرة: ولسنا نطول بتفصيلها ففيما ذكرناه إشارة إلى مجامعها، وفي العزلة خلاص من جميعها. والى هذا إشارة الأكثر ممن اختار العزلة. فقال أبو الدرداء: أخبر نقله، يروى مرفوعاً. وقال الشاعر:

من حمد الناس ولم يبيلهم  
وصار بالوحدة مستأنساً  
ثم بلاهم ذم من يحمد  
يوحشه الأقرب والأبعد

وقال عمر رضي الله عنه: في العزلة راحة من القرين السوء. وقيل لعبد الله بن الزبير: ألا تأتي المدينة؟ فقال: ما بقي فيها إلا حاسد نعمة أو فرح بنقمة. وقال ابن السماك: كتب صاحب لنا، أما بعد فإن الناس كانوا دواء يتداوى به فصاروا داء لا دواء له ففرّ منهم فرارك من الأسد. وكان بعض الأعراب يلازم شجراً ويقول: هو نديم فيه ثلاث خصال، إن سمع مني لم ينم علي. وإن تفلت في وجهه احتمل مني، وإن عربدت عليه لم يغضب. فسمع الرشيد ذلك فقال: زهدني في الندماء، وكان بعضهم قد لزم الدفاتر والمقابر ففيل له ذلك فقال: لم أر أسلم من وحدة ولا أوعظ من قبر، ولا جليس أمتع من دفتر، وقال الحسن رضي الله عنه: أردت الحج فسمع ثابت البناني بذلك - وكان أيضاً من أولياء الله - فقال: بلغني أنك تريد الحج فأحببت أن أصحبك، فقال له الحسن: ويحك دعنا نتعاشر بستر الله علينا إني أخاف أن نصطحب فيرى بعضنا من بعض ما تنماقت عليه. وهذه إشارة إلى فائدة أخرى في العزلة وهو بقاء الستر على الدين والمروءة والأخلاق والفقر وسائر العورات. وقد مدح الله سبحانه المتسترين فقال "يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف" وقال الشاعر:

ولا عار إن زالت عن الحر نعمة  
ولكن عارا أن يزول التجمل

ولا يخلوا الإنسان في دينه ودنياه وأخلاقه وأفعاله عن عورات الأولى في الدين والدنيا سترها ولا تبقى السلامة مع انكشافها. وقال أبو الدرداء: كان الناس ورقا لا شوك فيه فالناس اليوم شولا لا ورق فيه. إذا كان هذا حكم زمانه وهو في أواخر القرن الأول فلا ينبغي أن يشك في أن الأخير شر. وقال سفيان بن عيينة: قال لي سفيان الثوري - في البقطة في حياته وفي المنام بعد وفاته - أقلل من معرفة الناس فإن التخلص منهم شديد ولا حسب أني رأيت ما أكره إلا ممن عرفت. وقال بعضهم: جنت إلى مالك بن دينار وهو قاعد وحده، وإذا كلب قد وضع حنكه على ركبته. فذهب أطرده فقال: دعه يا هذا لا يضر ولا يؤذي وهو خير من جليس السوء. وقيل لبعضهم: ما حملك على أن تعتزل

الناس؟ قال: خشيت أن أسلب ديني ولا أشعر. وهذه إشارة إلى مسارقة الطبع من أخلاق القرين السوق. وقال أبو الرداء: اتقوا الله و احذروا الناس فإنهم ما ركبوا ظهر بعير إلا أدبروه، ولا ظهر جواد إلا عقروه، ولا قلب مؤمن إلا خربوه. وقال بعضهم: أقلل المعارف فإنه أسلم لدينك وقلبك، وأخف لسقوط الحقوق عنك، لأنه كلما كثرت المعارف كثرت الحقوق وعسر القيام بالجميع. وقال بعضهم: أنكر من تعرف ولا تتعرف إلى من لا تعرف.

## الفائدة الخامسة

أن ينقطع طمع الناس عنك

وينقطع طمعك عن الناس

فأما انقطاع طمع الناس عنك ففيه فوائد، فإن رضا الناس غاية لا تدرك فاشتغال المرء بإصلاح نفسه أولى ومن أهون الحقوق وأيسرها حضور الجنازة وعبادة المريض وحضور الولائم والإملاكات، وفيها تضييع الأوقات وتعرض للأفات، ثم قد تعوق عن بعضها العوائق وتستقبل فيها المعاذير، ولا يمكن إظهار كل الأعداء فيقولون له قمت بحق فلان وقصرت في حقنا، ويصير ذلك سبب عداوة فقد قيل: من لم يعد مريضاً في وقت العيادة استهوى موته خيفة من تخجيله إذا صح على تقصيره. ومن عمم الناس كلهم بالحرمان رضوا عنه كلهم، ولو خصص استوحشوا. وتعميمهم بجميع الحقوق لا يقدر عليه المتجرد له طول الليل والنهار فكيف من له مهم يشغله في دين أو دنيا؟ قال عمرو بن العاص: كثرة الأصدقاء كثرة الغرماء. وقال ابن الرومي:

فلا تستكثر من الصحاب  
يكون من الطعام أو الشراب

عدوك من صديقك مستفاد  
فإن الداء أكثر ما تراه

وقال الشافعي رحمه الله: أصل كل عداوة اصطناع المعروف إلى اللئام. وأما انقطاع طمعك عنهم فهو أيضاً فائدة جزيلة، فإن من نظر إلى زهرة الدنيا وزينتها تحرك حرصه وانبعث بقوة الحرص طمعه ولا يرى إلا الخيبة في أكثر الأحوال فيتأذى بذلك. ومهما اعتزل لم يشاهد لم يشته ولم يطمع ولذلك قال الله تعالى "ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به أزواجاً منهم" وقال صلى الله عليه وسلم "انظروا إلى من هو دونكم ولا تنظروا إلى من هو فوقكم فإنه أجدر أن لا تزدروا نعمة الله عليكم" وقال عون بن عبد الله: كنت أجالس الأغنياء فلم أزل مغموماً، كنت أرى ثوباً أحسن من ثوبي ودابة أفره من دابتي فجالست الفقراء فاسترحت. وكى أن المزني رحمه الله خرج من باب جامع الفسطاط وقد أقبل ابن عبد الحكم في موكبه فبهره ما رأى من حسن حاله وحسن هيئته فتلا قوله تعالى "وجعلنا بعضكم لبعض فتننة أتصبرون" قال بلى أصبر وأرضى، وكان فقيراً مقلداً. فالذي هو في بيته لا يبئلى بمثل هذه الفتن. فإن من شاهد زينة الدنيا فأما أن يقوى دينه ويقينه فيصبر إلى أن يتجرع مرارة الصبر - وهو أمر من الصبر - أو تتبع رغبته فيحتمل في طلب الدنيا فيهلك هلاكاً مؤبداً، أما في الدنيا فبالطمع الذي يخيب في أكثر الأوقات فليس كل من يطلب الدنيا تنيسر له، وأما الآخرة فإيثاره متاع الدنيا على ذكر الله تعالى والتقرب إليه. ولذلك قال ابن الإعرابي:

سموت إلى العلياء من جانب الفقر

إذا كان باب الدل من جانب الغنى

أشار إلى أن الطمع يوجب في الحال ذلاً.

## الفائدة السادسة

الخلاص من مشاهد الثقلاء والحمقى

ومقاساة حمقهم وأخلاقهم

فإن رؤية الثقل هي العمى الأصغر. قبل للأعمش: مم عمشت عيناك؟ قال: من النظر إلى الثقلاء. ويحكى أنه دخل عليه أبو حنيفة فقال: في الخبر "إن من سلب الله كريمته عوضه الله عنهما ما هو خير منهما" فما الذي عوضك؟

فقال - في معرض المطاوعة - عوضني الله منهما أنه كفاني رؤية الثقل وأنت منهم. وقال ابن سيرين: سمعت رجلاً يقول نظرت الى ثقيل مرة فغشى علي. وقال جالينوس: لكل شئ حمى وحمى الروح النظر الى الثقل.

وقال الشافعي رحمه الله: ما جالست ثقيلًا إلا وجدت الجانب الذي يليه من بدني كأنه أثقل من الجانب الآخر. وهذه الفوائد ما سوى الأوليين متعلقة بالمقاصد الدنيوية الحاضرة ولكنها أيضاً تتعلق بالدين. فإن الإنسان مهما تأذى برؤية ثقيل لم يأمن أن يغتابه وأن يستنكر ما هو صنع الله، فإذا تأذى من غيره بغيبة أو سوء ظن أو محاسدة أو نسيمة أو غير ذلك لم يصبر على مكافأته. وكل ذلك يجر الى فساد الدين وفي العزلة سلامة عن جميع ذلك فليفهم.

آفات العزلة اعلم من المقاصد الدينية و الدنيوية ما يستفاد بالاستعانة بالغير ولا يحصل ذلك إلا بالمخالطة. فكل ما يستفاد من المخالطة يفوت بالعزلة، وفواته من آفات العزلة. فانظر الى فوائد المخالطة والدواعي اليها ما هي، وهي التعليم والتعلم، والنفع والانتفاع، والتأديب والتأديب، والإستئناس والإيناس، ونيل الثواب وإنالته في القيام بالحقوق، واعتياد التواضع واستفادة التجارب من مشاهدة الأحوال والاعتبار بها. فلنصل ذلك فإنها من فوائد المخالطة وهي سبع :

## الفائدة الأولى

### التعليم والتعلم

وقد ذكرنا فضلها في كتاب العلم وهما أعظم العبادات في الدنيا. ولا يتصور ذلك إلا بالمخالطة إلا أن العلوم كثيرة وعن بعضها مندوحة، وبعضها ضروري في الدنيا. فالمحتاج إلى التعلم لما هو فرض عليه عاص بالعزلة. وإن تعلم الفرض وكان لا يتأتى منه الخوض في العلوم ورأى الإشتغال بالعبادة فليعتزل. وإن كان يقدر على التبرز في علوم الشرع والعقل فالعزلة في حقه قبل التعلم غاية الخسران. ولهذا قال النخعي وغيره: تفقه ثم اعتزل قبل التعلم فهو في الأكثر مضيع أوقاته بنوم أو فكر في هوس، وغايته أن يستغرق الأوقات بأوراد يستوعبها، ولا ينفك في أعماله باليدن والقلب عن أمواج من الغرور يخيب سعيه ويبطل عمله بحيث لا يدري، ولا ينفك اعتقاده في الله وصفاته عن أو هام يتوهمها ويأنس بها وعن خواطر فاسدة تعتريه فيها فيكون في أكثر أحواله ضحكة للشيطان وهو يرى نفسه من العباد. فالعلم هو أصل الدين فلا خير في عزلة العوام والجهال، أعني من لا يحسن العبادة في الخلوة ولا يعرف جميع ما يلزم فيها. فمثال النفس مثال مريض يحتاج الى طبيب متطّف يعالجه، فالمريض الجاهل إذا خلا بنفسه عن الطبيب قبل أن يتعلم الطب تضاعف لا محالة مرضه. فلا تليق العزلة إلا بالعالم وأما التعليم ففيه ثواب عظيم مهما صحت نية المعلم والمتعلم. ومهما كان القصد إقامة الجاه والاستكثار بالأصحاب والأتباع فهو هلاك الدين. وقد ذكرنا وجه ذلك في كتاب العلم.

وحكم في العالم في هذا الزمان أن يعتزل إن أراد سلامة دينه. فإنه لا يرى مستفيداً يطلب فائدة لدينه، بل لاطالب إلا لكلام مزخرف - يستميل به العوام في معرض الوعض أو الجدل - معقد يتوصل به الى إفحام الأقران ويتقرب به الى السلطان ويستعمل في معرض المنافسة والباهاة، وأقرب علم مرغوب فيه: المذهب، ولا يطلب غالباً إلا للتوصل الى التقدم على الأمثال وتولي الولايات واجتلاب الأموال. فهؤلاء كلهم يقتضي الدين والحزم الإعتزال عنهم، فإن صودف طالباً لله ومتقرب بالعلم الى الله فأكبر الكبائر الإعتزال عنه وكتمان العلم منه، وهذا لا يصادف في بلدة كبيرة أكثر من واحد أو اثنين إن صودف.

ولا ينبغي أن يغتر الإنسان بقول سفيان: تعلمنا العلم لغير الله فأبى العلم أن يكون إلا لله، فإن الفقهاء يتعلمون لغير الله ثم يرجعون الى الله. وانظر الى أواخر أعمار الأكثرين منهم واعتبرهم أنهم ماتوا، وهم هلكت على طلب الدنيا ومتكالبون عليها أو راغبون عنها وزاهدون فيها، وليس الخبر كالمعاينة. واعلم أن العلم الذي أشار اليه سفيان هو علم الحديث وتفسير القرآن ومعرفة سير الأنبياء والصحاب، فإن فيها التخويف والتحذير وهو سبب لإثارة الخوف من الله فإن لم يؤثر في الحال أثر في المال. وأما الكلام والفقهاء المجرد - الذي يتعلق بفتاوى المعاملات وفصل الخصومات - المذهب منه والخلاف لا يرد الراغب فيه للدنيا الى الله، بل لا يزال متمدياً في حرصه الى آخر عمره. ولعل ما أودعناه هذا الكتاب إن تعلمه المتعلم رغبة في الدنيا فيجوز أن يرخص فيه، إذ يرجى أن ينزجر به في آخر عمره فإنه مشحون بالتخويف بالله والترغيب في الآخرة ولتحذير من الدنيا، وذلك مما يصادف في الأحاديث وتفسير القرآن ولا يصادف في كلام ولا في خلاف ولا في مذهب. فلا ينبغي أن يخادع الإنسان نفسه فإن المقصر العالم بتقصيره أسعد حالاً من الجاهل المغرور أو المتجاهل المغبون وكل عالم اشتد حرصه على التعليم يوشك أن يكون غرضه القبول والجاه، وحظه تلذذ النفس في الحال باستشعار الإدلال على الجهال والتكبر عليهم،

فأفة العلم الخيلاء كما قال صلى الله عليه وسلم. ولذلك حكي عن ابن بشر أنه دفن سبعة عشرة قمطراً من كتب الأحاديث التي سمعها، وكان لا يحدث، ويقول: إني أشتي أن أحدث فلذلك لا أحدث ولو اشتييت أن لا أحدث لحدثت، ولذلك قال "حدثنا" باب من أبواب الدنيا، وإذا قال الرجل "حدثنا" فإنما يقول أوسعوا لي. وقالت رابعة العدوية لسفيان الثوري: نعم الرجل أنت لولا رغبتك في الدنيا، قال: وفيماذا رغبت؟ قالت: في الحديث. ولذلك قال أبو سفيان الداراني: من تزوج أو طلب الحديث أو اشتغل بالسفر فقد ركن إلى الدنيا. فهذه آفات قد نهينا عليها في كتاب العلم، والحزم الاحتراز بالعزلة وترك الاستكثار من الأصحاب ما أمكن، بل الذي يطلب الدنيا بتدريسه وتعليمه فالصواب له. إن كان غافلاً في مثل هذا الزمان أن يتركه. فلقد صدق أبو سليمان الخطابي حيث قال: دع الراغبين في صحبتك والتعلم منك فليس لك منهم مال ولا جمال، إخوان العلانية أعداء السر، إذا لقوك تملقوك وإذا غبت عنهم سلقوك، من أتاك منهم كان عليك رقيباً وإذا خرج كان عليك خطيباً، أهل نفاق ونميمة وغل وخديعة، فلا تغتر باجتماعهم عليك فما غرضهم العلم بل الجاه والمال وأن يتخذوك سلماً إلى أوطارهم وأغراضهم وحماراً في حاجاتهم، وإن قصرت في غرض من أغراضهم كانوا على أشد أعدائك، ثم يعدون ترددهم إليك دالة على ويره حقا واجبا لديك، ويفرضون عليك أن تبذل عرضك وجاهك ودينك لهم فتعادي عدوهم وتنصر قريبيهم وخدامهم ووليهم، وتنتهض لهم سفيهاً وقد كنت فقيهاً، وتكون لهم تابعاً خسيساً بعد أن كنت متبوعاً رئيساً. ولذلك قيل: اعتزال العامة مروءة تامة. فهذا معنى كلامه وإن خالف بعض ألفاظه، وهو حق وصدق. فإنك ترى المدرسين في رق دائم وتحت حق لازم ومنة ثقيلة ممن يتردد إليهم فكأنه يهدي تحفة إليهم ويرى حقه واجبا عليهم. وربما لا يختلف إليه ما لم يتكفل برزق له على الإدرار. ثم إن المدرس المسكين قد يعجز عن القيام بذلك من ماله، فلا يزال متردداً إلى أبواب السلاطين ويقاسي الذل والشدائد مقاساة الدليل المهين حتى يكتب له على بعض وجوه السحت مال حرام، ثم لا يزال العامل يسترقه ويستخدمه ويمتتهن ويستذله إلى أن يسلم إليه ما يقدره نعمة مستأنفة من عنده عليه، ثم يبقى في مقاساة القسمة على أصحابه إن سوى بينهم مقتته المميزون ونسبوه إلى الحمق وقلة التمييز والقصور عن درك مصارف الفضل والقيام بمقادير الحقوق بالعدل، وإن فاوت بينهم سلقه السفهاء بالسنة حداد وثاروا عليه ثوران الأسود والأساد، فلا يزال في مقاساتهم في الدنيا وفي مطالبة ما يأخذه ويفرقه عليهم في العقبى. والعجب أنه مع هذا البلاء كله يمني نفسه بالأباطيل ويدليها بحبل الغرور ويقول لها، لا تقترني عن صنيعك وإنما أنت بما تفعلينه مريدة وجه الله تعالى ومذبة شرع رسول الله صلى الله عليه وسلم وناشرة علم دين الله وقائمة بكفاية طلاب العلم من عباد الله، وأموال لسلاطين لا مالك لها وهي مرصدة للمصالح وأي مصلحة أكبر من تكثير أهل العلم؟ فيهم يظهر الدين ويتقوى أهله. ولو لم يكن ضحكة للشيطان لعلم بأدنى تأمل أن فساد الزمان لا سبب له إلا كثرة أمثال أولئك الفقهاء الذين يأكلون ما يجدون ولا يميزون بين الحلال والحرام، فتلحظهم أعين الجهال ويستجرون على المعاصي باستجرائهم اقتداء بهم واقتفاء لأثارهم. ولذلك قيل: ما فسدت الرعية إلا بفساد الملوك وما فسدت الملوك إلا بفساد العلماء. فنعوذ بالله من الغرور والعمى فإنه الداء الذي ليس له دواء.

## الفائدة الثانية

### النفع والإنتفاع

أما الإنتفاع بالناس فبالكسب والمعاملة. وذلك لا يتأتى إلا بالمخالطة والمحتاج إليه مضطر إلى ترك العزلة فيقع في جهاد من المخالطة أن طلب موافقة الشرع فيه - كما ذكرناه في كتاب الكسب - فإن كان معه مال لو اكتفى به قانعا لأقنعه فالعزلة أفضل له إذا انسدت طرق المكاسب في الأكثر إلى المعاصي، إلا أن يكون غرضه الكسب للصدقة. فإذا اكتسب من وجهه وتصدق به فهو أفضل من العزلة للاشتغال بالنافلة، وليس بأفضل من العزلة للاشتغال بالتحقق في معرفة الله ومعرفة علوم الشرع، ولا من الإقبال بكنه الهمة على الله تعالى والتجرد بها لذكر الله؛ أعني من حصل له أنس بمنجاة الله عن كشف وبصيرة لا عن أو هام وخيالات فاسدة.

وأما النفع فهو أن ينفع الناس إما بماله أو ببذنه فيقوم بحاجاتهم على سبيل الحسبة. ففي النهوض بقضاء حوائج المسلمين ثواب وذلك لا ينال إلا بالمخالطة. ومن يقدر عليها مع القيام بحدود الشرع فهي أفضل له من العزلة إن كان لا يشتغل في عزلته إلا بناوغل الصلوات والأعمال البدنية، وإن كان ممن انفتح له طريق العمل بالقلب بدوام ذكر أو فكر فذلك لا يعدل به غيره ألبتة.

## الفائدة الثالثة

### التأديب والتأديب

ونعني به الإرتياض بمقاساة الناس والمجاهدة في تحمل أذاهم كسراً للنفس وقهراً للشهوات. وهي من الفوائد التي تستفاد بالمخالطة، وهي أفضل من العزلة في حق من لم تنهذب أخلاقه ولم تدعن لحدود الشرع شهواته، ولهذا انتدب خدام الصوفية في الرباطات فخالطون الناس بخدمتهم وأهل السوق للسؤال منهم كسراً لرعونة النفس واستمداد من بركة دعاء الصوفية المنصرفين بهمهم إلى الله سبحانه. وكان هذا هو المبدأ في الأعصار الخالية والآن قد خالطته الأغراض الفاسدة ومال ذلك عن القانون كما مالت سائر شعائر الدين، فصار يطلب من التواضع بالخدمة التكثر بالاستبعا والتذرع إلى جمع المال والاستظهار بكثرة الأتباع، فإن كانت النية هذه فالعزلة خير من ذلك ولو إلى القبر، وإن كانت النية رياضة النفس فهي خير من العزلة في حق المحتاج إلى الرياضة: وذلك مما يحتاج إليه في بداية الإرادة: فبعد حصول الارتياض ينبغي أن يفهم أن الدابة لا يطلب من رياضتها عين رياضتها بل المراد منها أن تتخذ مركباً يقطع به المراحل ويطوى على ظهره الطريق والبدن مطية للقلب يركبها ليسلك بها طريق الآخرة وفيها شهوات إن لم يكسرها جمحت به في الطريق، فمن اشتغل طول العمر بالرياضة كان كمن اشتغل طول عمر الدابة برياضتها ولم يركبها، فلا يستفيد منها إلا الخلاص في الحال في عضها ورفسها ورمحها، وهي لعمرى فائدة مقصودة ولكن مثلها حاصل في البهيمة الميته، وإنما ترد الدابة لفائدة تحصل من حياتها، فكذلك الخلاص من ألم الشهوات في الحال يحصل النوم بالموت ولا ينبغي أن يقبع به كالراهب الذي قيل له: يا راهب، فقال: ما أنا راهب إنما أنا كلب عقور حبست نفسي حتى لا أعقر الناس: وهذا حسن بالإضافة إلى من يعقر الناس ولكن لا ينبغي أن يقتصر عليه، فإن من قتل نفسه أيضاً لم يعقر الناس، بل ينبغي أن ينشوف إلى الغاية المقصود بها. ومن فهم ذلك واهتدى إلى الطريق وقدر على السلوك استبان له أن العزلة أعون له من المخالطة. فأفضل لمثل هذا الشخص المخالطة أولاً والعزلة آخراً.

وأما التأديب فإنما نعني به أن يروض غيره وهو حال شيخ الصوفية معهم، فإنه لا يقدر على تهذيبهم إلا بمخاطبتهم، وحاله حال المعلم وحكمه، ويتطرق إليه من دقائق الآفات والرياء ما يتطرق إلى نشر العلم إلا أن مخايل طلب الدنيا من المريدين الطالبين للارتياض أبعد منها من طلبه العلم، ولذلك يرى فيهم قلة وفي طلبه العلم كثرة. فينبغي أن يقيس ما تيسر له من الخلوة بما تيسر له من المخالطة وتهذيب القوم وليقابل أحدهما بالآخر وليؤثر الأفضل، وذلك يدرك بدقيق الاجتهاد ويختلف بالأحوال والأشخاص فلا يمكن الحكم عليه مطلقاً بنفي ولا إثبات .

## الفائدة الرابعة

### الاستئناس والإيناس

وهو غرض من يحضر الولائم والدعوات ومواضع المعاشرة والأنس، وهذا يرجع إلى حظ النفس في الحال. وقد يكون ذلك على وجه حرام بمؤانسة من لا تجوز مؤانسته، أو على وجه مباح. وقد يستحب ذلك الأمر الدين وذلك فيمن تستأنس بمشاهدة أحواله وأقواله في الدين كالأنس بالمشايخ الملازمين لسمت التقوى. وقد يتعلق بحظ النفس ويستحب إذا كان الغرض منه ترويح القلب لتهديج دواعي النشاط في العبادة، فإن القلوب إذا أكرهتعميت ومهما كان في الوحدة وحشة وفي المجالسة أنس يروح القلب فهي أولى، إذ الوفق في العبادة من حزم العبادة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم "إن الله لا يمل حتى تملاوا" وهذا أمر لا يستغنى عنه فإن النفس لا تألف الحق على الدوام ما لم تروح؛ وفي تكليفها الملازمة داعية للفترة وهذا عنى بقوله عليه السلام "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق" والإيغال فيه برفق دأب المستبصرين ولذلك قال ابن عباس: لولا مخافة الوسواس لم أجالس الناس، وقال مرة: لدخلت بلاد لا أنيس بها، وهل يفسد الناس إلا الناس؟ فلا يستغنى المعتزل إذا عن رفيق يستأنس بمشاهدته ومحادثته في اليوم والليلة ساعة فليجتهد في طلب من لا يفسد عليه في ساعته تلك سائر ساعاته فقد قال صلى الله عليه وسلم "المرء على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل" وليحرص أن يكون حديثه عند اللقاء في أمور الدين وحكاية أحوال القلب وشكواه وقصوره عن الثبات على الحق والاهتداء إلى الرشده، ففي ذلك متنفس ومتروح للنفس، فيه مجال رحب لكل مشغول بإصلاح نفسه فإنه لا تنقطع شكواه ولو عمر أعماراً طويلة، و الراضي عن نفسه مغرور قطعاً. فهذا النوع من الاستئناس في بعض أوقات النهار ربما يكون أفضل من العزلة في حق بعض الأشخاص فليتفقد فيه أحوال القلب وأحوال الجليس أولاً ثم ليجالس .

## الفائدة الخامسة

### في نيل الثواب وإنالته

أما النيل فيحضور الجنائز وعبادة المريض وحضور العيدين، وأما حضور الجمعة فلا بد منه. وحضور الجماعة في سائر الصلوات أيضاً لا رخصة في تركه إلا الخوف ضر ظاهر يقاوم ما يفوت من فضيلة الجماعة ويزيد عليه، وذلك لا يتفق إلا نادراً. وكذلك في حضور الإملاكات و الدعوات ثواب من حيث أنه إدخال سرور على قلب مسلم .

وأما أنالته فهو الباب لتعوده الناس أو لعزوه في المصائب أو يهنوه على النعم فإنهم ينالون بذلك ثواباً، وكذلك إذا كان من العلماء وإذن لهم في الزيارة نالوا ثواب الزيارة، وكان هو بالتمكين سبباً فيه فينبغي أن يزن ثواب هذه المخالطات بأفاتها التي ذكرناها، وعند ذلك قد ترجح العزلة وقد ترجح المخالطة. فقد حكي عن جماعة من السلف مثل مالك وغيره ترك إجابة الدعوات وعبادة المرضى وحضور الجنائز بل كانوا أحلاس بيوتهم لا يخرجون إلا إلى الجمعة أو زيارة القبور، وبعضهم فارق الأمصار وانحاز إلى قلال الجبال تفرغاً للعبادة وفراراً من الشواغل.

## الفائدة السادسة

من المخالطة التواضع، فإنه من أفضل المقامات ولا يقدر عليه في الوحدة، وقد يكون الكبر سبباً في اختيار العزلة. فقد روي في الإسرائيليات أن حكيماً من الحكماء صنف ثلثمائة وستين مصحفاً في الحكمة حتى ظن أنه قد نال عند الله منزلة، فأوحى الله إلى نبيه: قل لفلان إنك قد ملأت الأرض نفاقاً وإني لا أقبل من نفاقك شيئاً، قال: فتخلى وانفرد في سرب تحت الأرض وقال: الآن قد بلغت رضا ربي، فأوحى الله إلى نبيه قل له: إنك لن تبلغ رضاي حتى تخالط الناس وتصبر على أذاهم، فخرج فدخل الأسواق وخالط الناس وجالسهم وواكلهم وأكل الطعام بينهم ومشى في الأسواق معهم، فأوحى الله تعالى إلى نبيه: الآن قد بلغ رضاي. فكم من معتزل بيته وباعته الكبر ومانعه عن المحافل أن لا يوقر أو لا يقدم، أو يرى الترفع عن مخالطتهم أرفع لمحلته وأتقى لظراوة ذكره بين الناس، وقد يعتزل خيفة من أن تظهر مقابحه لو خالط فلا يعتقد فيه الزهد والإشتغال بالعبادة فيتخذ البيت سترأ على مقابحه إبقاء على اعتقاد الناس في زهده وتعبده من غير استغراق وقت الخلوة بذكر أو فكر، وعلامة هؤلاء أنهم يحبون أن يزاروا ولا يحبون أن يزوروا. ويفرحون بتقرب العوام و السلاطين إليهم واجتماعهم على بابهم وطرقهم وتقبيلمهم أيديهم على سبيل التبرك، ولو كان الإشتغال بنفسه هو الذي يبغض إليه المخالطة وزيارة الناس لبغض إليهم يارتهم له، كما حكيناه عن الفضيل حيث قال: وهل جئتني إلا لأتزين لك وتترين لي. وعن حاتم الأصم أنه قال للأمير الذي زاره: حاجتي أن لا أراك ولا تراني. فمن ليس مشغولاً مع نفسه بذكر الله فاعتزله عن الناس سببه شدة اشتغاله بالناس، لأن قلبه متجرد للإلتفات إلى نظرهم إليه بعين الوقار والإحترام. والعزلة بهذا السبب جهل من وجوه، أحدها: أن التواضع و المخالطة لا تنقص من منصب من هو متكبر بعلمه أو دينه إذ كان علي رضي الله عنه يحمل التمر و الملح في ثوبه ويده ويقول :

ما جرّ من نفع عياله

لا ينقص الكامل من كماله

وكان أبو هريرة وحذيفة وأبي وابن مسعود رضي الله عنهم يحملون حزم الحطب وجرب الدقيق على أكتافهم وكان أبو هريرة رضي الله عنه يقول - وهو والي المدينة و الحطب على رأسه - طرقتوا لأميركم. وكان سيد المرسلين صلى الله عليه وسلم يشتري الشيء فيحمله إلى بيته بنفسه؛ فيقول له صاحبه: أعطني أحمله فيقول "صاحب الشيء أحق بحمله" وكان الحسن بن علي رضي الله عنهما يمر بالسؤال وبين أيديهم كسر فيقولون: هلم إلى الغداء يا ابن رسول الله فكان ينزل ويجلس على الطريق ويأكل معهم ويركب ويقول "إن الله لا يحب المستكبرين". الوجه الثاني: أن الذي شغل نفسه بطلب رضا الناس عنه وتحسين اعتقادهم فيه مغرور لأنه لو عرف الله حق المعرفة علم أن الخلق لا يغنون عنه من الله شيئاً؛ وأن ضرره ونفعه بيد الله ولا نافع ولا ضار سواه وأن من طلب رضا الناس ومحبتهم بسخط الله سخط الله عليه وأسخط عليه الناس، بل رضا الناس غاية لا تتال، فرضى الله أولى بالطلب ولذلك قال الشافعي ليونس بن عبد الأعلى: والله ما أقول لك إلا نصحاً إنه ليس إلى السلامة من الناس من سبيل، فانظر ماذا يصلحك فافعله؟ ولذلك قيل:

وفاز باللذة الجسور

من راقب الناس مات غمًا

ونظر سهل الى رجل من أصحابه فقال له: اعمل كذا وكذا - لشيء أمره به - فقال: يا أستاذ لا أقدر عليه لأجل الناس، فالتفت إلى أصحابه وقال: لا ينال عبد حقيقة من هذا الأمر حتى يكون بأحد وصفين؛ عبد تسقط الناس من عينه فلا يرى في الدنيا إلا خالقه، وأن أحداً لا يقدر على أن يضره ولا ينفعه. وعبد سقطت نفسه عن قلبه فلا يبالي بأي حال يرونها. وقال الشافعي رحمه الله: ليس نم أحد وإلا له محب ومبغض فإذا كان هكذا فكن مع أهل طاعة الله وقيل للحسن: يا أبا سعيد إن قوماً يحضرون مجلسك ليس بغيتهم إلا أن تتبع سقطات كلامك وتعنيك بالسؤال؛ فتبسم وقال للقاتل: هون على نفسك فإني حدثت نفسي بسكنى الجنان ومجاورة الرحمن فطمعت وما حدثت نفسي بالسلامة من الناس لأنني قد علمت أن خالقهم ورازقهم ومحبيهم ومميتهم لم يسلم منهم. وقال موسى صلى الله عليه وسلم يا رب احبس عني أسنة الناس فقال: يا موسى هذا شيء لم اصطفه نفسي فكيف أفعله بك؟ وأوحى لله سبحانه و تعالى الى عزيز: إن لم تطب نفساً بأني اجعلك علكاً في أفواه الماضغين لم أكتبك عندي من المتواضعين. فإذن من حبس نفسه في البيت ليحسن اعتقادات الناس وأقوالهم فيه فهو في عناء حاضر في الدنيا "ولعذاب الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون" فإذن لا تستحب العزلة إلا لمستغرق الأوقات بربه ذكراً وفكراً وعبادة وعلماً بحيث لو خالطه الناس لصاعقت أوقاته وكثرت آفاته ولتشوشت عليه عباداته. فهذه غوائل خفية في اختيار العزلة ينبغي أن تتقي فإنها مهلكات في صور منجيات .

## الفائدة السابعة

### التجارب

فإنها تستفاد من المخالطة للخلق ومجاري أحوالهم. والعقل الغريزي ليس كافياً في تفهم مصالح الدين والدنيا. وإنما تفيدها التجربة والممارسة، ولاخير في عزلة من لم تحنكه التجارب؛ فالصبي إذا اعتزل بقي عمراً جاهلاً بل ينبغي أن يشتغل بالتعلم، ويحصل له في مدة التعلم ما يحتاج إليه من التجارب ويكفيه ذلك، ويحصل بقیة التجارب بسماع الأحوال ولا يحتاج الى المخالطة. ومن أهم التجارب أن يجرب نفسه وأخلاقه وصفاته باطنه وذلك لا يقدر عليه في الخلوة، فإن كل مجرب في الخلاء يسر، وكل غضوب أو حقود أو حسود إذا خلا بنفسه لم يترشح منه خبثه وهذه الصفات مهلكات في أنفسها يجب إباطتها وقهرها ولا يكفي تسكينها بالتباعد عما يحركها. فمثال القلب المشحون بهذه الخبائث مثال دمل ممتلئ بالصدید والمدة وقد لا يحس صاحبه بألمه مالم يتحرك أو يمسه غيره، فإن لم يكن له يد تمسه أو عين تبصر صورته ولم يكن من يحركه ربما ظن بنفسه السلامة ولم يشعر بالدمل في نفسه وأعتقد فقده. ولكن لو حركة محرك أو إصابة مشرط حجام لانفجر منه الصدید وفار فوران الشيء المختنق إذا حبس عن الإسترسال، فكذلك القلب المشحون بالحقد والبخل والحسد والغضب وسائر الأخلاق الذميمة إنما تنفجر منه خبائثه إذا حرك. وعن هذا كان السالكون لطرق الآخرة الطالبون لتزكية القلوب يجربون أنفسهم. فمن كان يستشعر في نفسه كبراً سعى في إماطته حتى كان بعضهم يحمل قرية ماء على ظهره بين الناس أو حزمة حطب على رأسه يتردد في الأسواق ليحرب نفسه بذلك؛ فإن غوائل النفس ومكائد الشيطان خفية قل من يتفطن لها ولذلك حكي عن بعضهم أنه قال: أعدت الصلاة ثلاثين سنة مع كنت أصلها في الصف الأول، ولكن تخلفت يوماً بعدر فما وجدت موضعاً في الصف الأول فوقفت في الصف الثاني فوجدت نفسي تستشعر خجلة من نظر الناس إلي وقد سبقت الى الصف الأول، فعلمت أن جميع صلواتي التي كنت أصلها كانت مشوبة بالرياء ممزوجة بلذة نظر الناس إلي ورؤيتهم إياي في زمرة السابقين الى الخير. فالمخالطة لها فائدة ظاهرة عظيمة في استخراج الخبائث وإظهارها. ولذلك قيل: السفر يسفر عن الأخلاق فإنه نوع من المخالطة الدائمة. وستأتي غوائل هذه المعاني ودقائقها في ربع المهلكات، فإن بالجهل بها يحيط العلم الكثير وبالعلم بها يزكو العمل القليل، ولولا ذلك ما فضل العلم على العمل، إذ يستحيل أن يكون العلم بالصلاة ولا يراد للصلاة إلا أفضل من الصلاة، فإننا نعلم أن ما يراد لغيره فإن ذلك الغير أشرف منه، وقد قضى الشرع بتفضيل العالم العابد حتى قال صلى الله عليه وسلم "فضل العالم على العابد كفضلي على أدنى رجل من أصحابي" بمعنى تفضيل العلم يرجع الى ثلاثة أوجه "أحدها" ما ذكرناه "والثاني" عموم النفع لتعدى فائدته والعمل لا تتعدى فائدته "والثالث" أن يراد به العلم بالله وصفاته وأفعاله فذلك أفضل من كل عمل، بل مقصود الأعمال صرف القلوب عن الخلق الى الخالق لتتبعث بعد الإنصراف اليه لمعرفته ومحبته، فالعمل وعلم العمل مرادان لهذا العلم، وهذا العلم غاية المریدين والعمل كالشرط له، وإليه الإشارة بقوله تعالى "إليه يصعد الكلم الطيب والعمل الصالح يرفعه" فالكلم الطيب هو هذا العلم، والعمل كالحمال الرافع له الى مقصده فيكون المرفوع أفضل من الرافع. وهذا كلام معترض لا يليق بهذا الكلام. فلنرجع الى المقصود فنقول: إذا عرفت فوائد العزلة وغوائلها تحققت أن الحكم عليها مطلقاً بالتفضيل نفيًا وإثباتًا خطأ، بل ينبغي أن ينظر الى الشخص وحاله والى الخليط وحاله والى الباعث على مخالطته والى الفانث بسبب مخالطته من هذه الفوائد المذكورة، ويقاس الفانث بالحاصل فعند ذلك يتبين الحق ويتضح الأفضل، كلام الشافعي رحمه الله هو فصل الخطاب إذ قال يا يونس، الإنقباض عن الناس مكسبة



للعداوة والإنسباط اليهم مجلبة لقرناء السوء فكن بين المنقبض والمنسبط. فلذلك يجب الاعتدال في المخالطة والعزلة، ويختلف ذلك بالأحوال. وبملاحظة الفوائد والآفات يتبين الأفضل. هذا هو الحق الصراح وكل ما ذكر سوى هذا فهو قاصر. وإنما هو إخبار كل واحد عن حالة خاصة هو فيها، ولا يجوز أن يحكم بها على غيره والمخالف له في الحال. والفرق بين العالم والصوفي في ظاهر العلم يرجع الى هذا وهو أن الصوفي لا يتكلم إلا عن حاله فلا جرم تختلف أجوبته في المسائل، والعالم هو الذي يدرك الحق على ما هو عليه ولا ينظر الى حال نفسه فيكشف الحق فيه، وذلك مما لا يختلف فيه فإن الحق واحد أبداً، والقاصر عن الحق كثير لا يحصى. ولذلك سئل الصوفية عن الفقر فما من واحد إلا وأجاب بجواب غير جواب الآخر، وكل ذلك حق بالإضافة إلى حاله وليس بحق في نفسه إذ الحق لا يكون إلا واحد. ولذلك قال أبو عبد الله الجلاء- وقد سئل عن الفقر- فقال: اضرب بكميك الحائط وقل ربى الله فهو الفقر. وقال الجنيد: الفقير هو الذي لا يسأل أحد ولا يعارض وإن عورض سكت. وقال سهل بن عبد الله: الفقير الذي لا يسأل ولا يدخر. وقال آخر: هو أن لا يكون لك فإن كان لك فلا يكون لك من حيث لم يكن لك. وقال إبراهيم الخواص: هو ترك الشكوى وإظهار أثر البلوى. والمقصود أنه لو سئل منهم مائة لسمع منهم مائة جواب مختلفة قلما يتفق منها اثنان، وذلك كله حق من وجه فإنه خبر كل واحد عن حاله وما غلب عن قلبه. ولذلك لا نرى اثنين منهم يثبت أحدهما لصاحبه قدما في التصوف أو يثنى عليه، بل كل واحد منهم يدعى أنه الواصل إلى الحق والواقف عليه؛ لأن أكثر ترددهم على مقتضى الأحوال التي تعرض لقلوبهم فلا يشتغلون إلا بأنفسهم ولا يلتفتون إلى غيرهم. ونور العالم إذا أشرق أحاط بالكل وكشف الغطاء ورفع الاختلاف. ومثال نظر هؤلاء ما رأيت من نظر قوم في أدلة الزوال- بالنظر في الظل- فقال بعضهم هو في الصيف قدما، وحكى عن آخر أنه نصف قدم، وآخر يرد عليه وأنه في الشتاء سبعة أقدام، وحكى عن آخر أنه خمسة أقدام، وآخر يرد عليه؛ فهذا يشبه أجوبة الصوفية واختلافهم، فإن كل واحد من هؤلاء أخبر عن الظل الذي رآه ببلد نفسه، فصدق في قوله وأخطأ في تخطئته صاحبه إذ ظن أن العالم كله بلده أو هو مثل بلده، كما أن الصوفي لا يحكم على العالم إلا بما هو حال نفسه: والعالم بالزوال هو الذي يعرف علة طول الظل وقصره وعلته اختلافه بالبلاد فيخبر بأحكام مختلفة في بلاد مختلفة ويقول في بعضها لا يبقى ظل، وفي بعضها يطول، وفي بعضها يقصر فهذا ما أردنا أن نذكره من فضيلة العزلة والمخالطة. فإن قلت: فمن أثر العزلة ورأها أفضل له وأسلم فما آدابه في العزلة؟ فنقول: إنما يطول النظر في آداب المخالطة وقد ذكرناها في كتاب آداب الصحبة. وأما آداب العزلة فلا تطول فينبغي للمعتزل أن ينوي بعزلته كف شر نفسه عن الناس أولاً، ثم طلب السلامة من شر الأشرار ثانياً، ثم الخلاص من آفة القصور عن القيام بحقوق المسلمين ثالثاً، ثم التجرد بكنه الهمة لعبادة الله رابعاً؛ فهذه آداب نيته. ثم ليكون في خلوته مواظباً على العلم والعمل والذكر والفكر ليحتمل ثمره العزلة وليمنع الناس عن أن يكثرُوا غشيانته وزيارته فيشوش أكثر وقته. وليكيف عن السؤال عن أخبارهم وعن الإصغاء إلى أراجيف البلد وما الناس مشغولون به، فإن كل ذلك ينغرس في قلب حتى ينبعث في أثناء الصلاة أو الفكر من حيث لا يحتسب، فوقوع الأخبار في السمع كوقوع البذر في الأرض فلا بد أن ينبت وتتفرع عروقه وأغصانه ويتداعى بعضها إلى بعض. وأحد مهمات المعتزل قطع الوسواس الصارفة عن ذكر الله. والأخبار ينابيع الوسواس وأصولها. وليقتنع باليسير من المعيشة وإلا اضطره التوسع إلى الناس واحتاج إلى مخالطتهم. وليكن صبوراً على ما يلقاه من أذى الجيران وليس معه عن الإصغاء إلى ما يقال فيه من ثناء عليه بالعزلة أو قدح فيه بترك الخلطة، فإن كل ذلك يؤثر في القلب ولو مدة يسيرة، وحال اشتغال القلب به لا بد أن يكون واقفاً عن سيره إلى الطريق الآخرة، فإن السير إما بالمواظبة على ورد وذكر مع حضور قلب، وإما بالفكر في جلال الله وصفاته وأفعاله وملكوته سمواته وأرضه، وإما بالتأمل في دقائق الأعمال ومفاسد القلوب وطلب طرق التحصن منها. وكل ذلك يستدعي الفراغ والإصغاء إلى جميع ذلك مما يشوش القلب في الحال. وقد يتجدد ذكره في دوام الذكر من حيث لا ينتظر. وليكن له أهل صالحة أو جلس صالح لتستريح نفسه إليه في اليوم ساعة من كد المواظبة ففيه عون على بقية الساعات. ولا يتم له الصبر في العزلة إلا بقطع الطمع عن الدنيا وما الناس منهمكون فيه، ولا ينقطع طمعه إلا بقصر الأمل بأن لا يقدر لنفسه عمراً طويلاً، بل يصبح على أنه لا يمسي ويمسي على أنه لا يصبح، فيسهل عليه الصبر يوم ولا يسهل عليه العزم على الصبر عشرين سنة لو قدر تراخى الأجل. وليكن كثير الذكر للموت ووحدة القبر مهما ضاق قلبه من الوحدة. وليتحقق أن من لم يحصل في قلبه من ذكر الله ومعرفته ما يأنس به فلا يطيق وحشه الوحدة بعد الموت. وأن من أنس بذكر الله ومعرفته فلا يزيل الموت أنسه إذ لا يهدم الموت محل الأُنس والمعرفة بل يبقى حياً بمعرفته وأنسه فرحاً بفضل الله عليه ورحمته، كما قال الله تعالى في الشهداء "ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله" وكل متجرد لله في جهاد نفسه فهو شهيد مهما أدركه الموت مقبلاً غير مدبر "فالمجاهد من جاهد نفسه وهواه" وكما صرح به رسول الله صلى الله عليه وسلم. والجهاد الأكبر جهاد النفس كما قال بعض الصحابة رضي الله عنهم: رجعنا من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر، يعنون جهاد النفس.

تم كتاب العزلة، ويتلوه: كتاب آداب السفر، والحمد لله وحده.